الكتاب الثالث

الفلسفة والسعادة

انظر مليًّا كيف يُزاح كلُّ ما هو قائمٌ وكل ما هو قادمٌ ويصير ماضيًا ويزول زوالًا، تأمل أيضًا الهوَّة الفاغِرة للماضي والمستقبل التي تَبتلع كلَّ شيء، أليس بأحمق من يعيش وسط هذا كله ثم تُحدِّثه نفسه أن يلجَّ في الأمل أو يَهلك في الكفاح أو يسخط على نصيبه؟! وكأنَّ أي شيءٍ من هذا دائمٌ له أو مقدَّرٌ أن يؤرِّقه طويلًا.

ماركوس أوريليوس، التأملات ٥، شذرة ٢٣

الفصل الأول

الفلسفة تعِد بالسعادة

حين انتهت من أنشودتها كنت مأخوذًا بسحر نغمها العذب، مستغرقًا أود أن أظل مصغيًا؛ لذا قلت بعد لحظة: «أيتها الراحة الكبرى للروح المتعبة، كم روَّحت عني بعميق فكرك وشجيِّ غنائك، لقد عُدْت الآن قادرًا على تَلَقِّي ضربات القدر، ولم أعُد أوجس خيفةً من العلاجات الحاسمة التي حدَّثتني عنها، بل أراني أتوق إلى سماعها وأُلِحُّ إليك في طلبها.»

ردَّت السيدة: «لقد عرفت ذلك حين بدأت تتشبث بكلماتي بانتباهٍ صامت، ولقد توقعت منك هذا التوجُّه العقلي، أو، إن شئت الدقة، خلقته فيك، العلاجات القادمة ستكون في الحقيقة مُرَّة المذاق، ولكنها ما أن تنسرب إلى داخلك حتى تجد لها حلاوةً باطنةً تَشيع فيك، قلت إنك مشوقٌ إلى سماع المزيد، وسوف يزداد اشتياقُك لو عرفت إلى أين أريدُ أن أقودَك.»

ب: «إلى أين؟»

ف: «إلى السعادة الحقة، التي تهفو إليها روحك فيحجبها بصرك الذي تُغَشِّي عليه أوهامك عنها فلا تراها.»

ب: «أستحلفك أن تكشفي لي عن طبيعة هذه السعادة الحقة، وأن تُعجِّلي بي إليها.»

ف: «سأفعل ذلك من أجلك بكلِّ سرور، ولكن في البداية سأحاول أن أرسم لك صورةً عامةً عن سبب السعادة، عندئذ، وبإدراكٍ صحيحٍ لذلك، سيكون بوسعك أن تُشِيح ببصرِك إلى الجانب الآخر وتميز هيئة السعادة الحقيقية.»

مَن يشأ أن يبذُر في أرضٍ بكر،
فليُطهرها أولًا من الأحراش،
وليقطع السراخس والعُلِّيق بالمنجل؛
حتى يمهِّد الطريق لإلهة الحصاد المثقلة بالغلال اليانعة،
اللسان الذي ذاق الأمر في البداية،
سيجد الشهد الذي كدَّ النحلُ في إعداده
أكثر حلاوة،
النجوم تكون أكثر بهاءً وتألقًا
عندما توقف العاصفة دويَّها ومطرها،
وليس قبل أن يطرد نجمُ الصباح جحافل الظلام،
يُقبلُ النهار بكل وضاءته يقود عربته الوردية
أنت أيضًا، وقد بصُرت بوجه السعادة الزائفة أولًا،
بوسعك الآن أن تَضَع نيرها عن عنقكن
وجديرٌ بالسعادة الحقيقية الآن أن تَنفُذ إلى روحك.

الفصل الثاني

الخير الأسمى

وقفت السيدة مطرِقةً إلى الأرض كأنها تَرُود من فِكرِها أعماقًا قصيَّة، ثم استأنفت حديثها قائلةً: إن سعي الفانين، الذي يَكْرِبهم بتنوع أهدافه واتجاهاته، إنما يمضي بهم في دروبٍ مختلفةٍ قاصدًا في النهاية إلى هدفٍ واحدٍ وهو السعادة،[١] إنها الخير الذي إذا بَلَغه الإنسان لم يَسَعه أن يصبو إلى أي شيءٍ آخر، وهي إذن الخيرُ المكتمل الأسمى الذي ينطوي في داخله على كل ألوان الخير؛ لأنه لو افتَقَر إلى أي شيء لما كان الخير الكامل، إذ يبقى هناك شيءٌ خارجه قد يكون مرغوبًا، السعادة إذن هي حالةٌ من كمال الخير، لاحتوائها على كل ما هو خير، والتي يسعى إليها، كما قلت، جميع البشر الفانين وإن تعدَّدت الطرق، ذلك أن الرغبة في الخير الحقيقي هي شيءٌ متأصِّلٌ بالطبيعة في نفوس

[١] لاحظ أن كلمة «سعادة» eudaimonia, beatitude لا تعني عند اليونان مجرد «حالة نفسية» بهيجة، إنها بالأحرى «حالة حياتية»: أن تكون سعيدًا تعني أن تعيش حياةً ذات قيمة، وقد تَصَوَّرها أرسطو كممارسةٍ نشطةٍ لقوى النفس وفقًا لما يُمليه العقل، واليوديمونيا تُترجم عادةً إلى «السعادة» happiness غير أنها تشتمل أيضًا على متضمنات كلمة «نجاح» success؛ لأنها تتضمن، إلى جانب العيش الصحيح، الفعل الصحيح، واليوديمونيا حالةٌ تامة مكتفية بذاتها لا ترمي إلى أي غايةٍ خارجةٍ عنها، فهي إذن تتسم داخلها كلَّ ما يُطلب كغايةٍ في ذاته، ومِن ثَمَّ فهي تتضمن اللذة ولكنها تتجاوزها، وفي «الأخلاق النيقوماخية» يُمجِّد أرسطو حياة البحث بوصفها التحقق الأصيل لليوديمونيا، وإذا كان أرسطو يذهب إلى أن السعادة، التي هي غاية الفعل، هي نفسها أفعال تمليها الفضيلة ويمليها العقل، فإن بوئثيوس يرى السعادة، أو الخير، واقعًا قائمًا بذاته على مستوًى أعلى من الوجود الأرضي.

البشر، وما يَطِيش بهم عن هذا الهدف إلا الخطأ والسير في الدروب الضالَّة إلى الخيرات الزائفة.[٢]

يرى البعض أن الخير الأسمى هو ألا يحتاجَ المرءُ إلى شيءٍ ولا يَنْقُصَه شيءٌ، ومن ثم فقد غذُّوا السير لامتلاك الثروة الوفيرة، ويرى البعض الآخر أن الخير الحقيقي هو ذلك الذي ينتزِع التبجيل والتوقير، ومن ثم سعوا إلى المنصب الذي يَكفُل لهم احترام مواطنيهم، وقرَّر البعض أن أعلى خيرٍ يكمن في أعلى قوة، ومن ثم فقد سَعَوا إلى أن يصبحوا هم أنفسهم حُكامًا أو أن يكونوا على صلة بمن هو في مواقع السلطة، ويذهب آخرون إلى أن خير شيءٍ هو الشهرة والمجد، ويكدُّون أنفسَهم لبناء اسمٍ كبيرٍ في دنيا الفنون — فنون السلم أو فنون الحرب.

إلا أنهم جميعًا بلا استثناء يَتَّفِقون على أن الخيرَ يُقاس محصوله باللذة والمتعة التي يَجلُبُها، وأن الإنسانَ الأسعد هو إنسانٌ يَتَقلَّب في المتعة.

وهناك بَعْدُ مَن يخلطون بين الغايات والوسائل في هذه الأشياء، كالذي يرغبُ في الثروة من أجل القوة واللذة، أو يرغب في السلطة من أجل المال والمجد.

في هذه الأهداف إذن وفي أمثالها، يكمن الهدفُ من أفعال البشر ومَهْوَى قلوبهم: الشهرة والشعبية التي تضفي نوعًا من التميز، أو الزوجة والأبناء، وهي ما يطلبه الرجال من أجل المتعة التي تمنحها، أما عن الصداقة فإن الصنف النقيَّ النزيه منها يُعَد أعلى ضروب الخير وأقدسها، وما عدا ذلك يلحق بالرغبة في القوة أو التسلية.

من الواضح أيضًا أن المزايا الجسدية قد تُنْسب إلى ضروب الخير السابقة: فقوة الجسم وحجمه يمنح الرجل بأسًا، والجمال والسرعة تمنحانه الشهرة، والصحة تمنحه المتعة.

يرى كلُّ إنسان أن ما يرغب فيه فوق كل ما عداه هو الخير الأسمى، ولقد عرَّفت الخير الأسمى للتو بأنه السعادة، إذن فإن الحالة التي يرغب فيها كلُّ إنسانٍ فوق غيرها هي الحالة التي حَكَمَ بأنها حالة السعادة؛ الثروة، المنصب، السلطة، المجد، اللذة، وقد

[٢] قريبٌ من ذلك، بعض الشيء، قول المتنبي:

وكلٌّ يرى طُرْق الشجاعة والندَى   ولكنَّ طبعَ النفسِ للنفس قائدُ

ذهب أبيقور Epicurus، بالنظر إلى هذه الحالات وحدَها، وباتساقٍ تام، إلى أن اللذة هي الخير الأسمى ما دام كلُّ ما عداها يدخل في بابها من حيث إنه يجلب إلى النفس اللذة.

ولكن لِنَعُد إلى نزعات الناس: إن عقولهم تبدو ساعيةً إلى أسمى خير، وذاكرتهم تبدو كليلةً، فهم أشبه برجلٍ ثملٍ يريد العودة إلى بيته ولكنه لا يتذكر الطريق إليه، لا يمكن لأحدٍ أن يقولَ إنَّ مَن يسعون إلى سد جميع احتياجاتهم هم على خطأ، فالحق أنه ليس أدْعَى إلى السعادة من حالةٍ تتوافر فيها للمرء كل الخيرات ويتحقق له فيها الاكتفاء وانتفاء الحاجة، ولا أحد يمكن أن يُخطِّئ مَن يَرَون أن أحظى الناس بالتبجيل والتوقير هو أفضلهم، فالجلال والرِّفعة ليسا بالشيء الهمل وبلوغُهما هو هدفٌ يكدح إليه كل البشر تقريبًا.

السلطة أيضًا ينبغي أن تُعَد ضمن الأشياء الخيِّرة، فمن ذا الذي يقول إنَّ الشيء الذي يسلِّم الجميع بأنه أعلى الأشياء قاطبةً هو شيءٌ هينٌ أو واهٍ؟

والشهرة كذلك لا يمكن إغفال قيمتها؛ لأن كل ما هو عظيم الامتياز هو أيضًا عظيم الشهرة.

ومن فضول القول إن السعادة هي حالةٌ تخلو من الهم والحزن والأسى والمعاناة، إذ إنه حتى في أصغر الأمور يسعى المرء إلى ما يَبهَج به ويستمتع.

تلك إذن هي الأشياء التي يَتُوق الناس إليها: الثروة، مناصب الشرف، المُلك، المجد، المتعة، وهم يَتُوقون إليها لأنهم يَرَون أنهم من خلالها سوف يجدون الإشباع والاعتبار والسلطة والمجد والسعادة، هذا هو الخير الذي يبحث عنه الناس في مساعيهم المتنوعة، وليس من العسير أن تكشف دور الطبيعة في ذلك، فعلى الرغم من تنوع آراء الناس واختلاف مشاربهم فإنهم جميعًا على اتفاقٍ في الهدف الذي ينشدونه، وهو الخير الأسمى.

يطيب لي أن أُنشد نغمًا شجيًّا على أوتارٍ وئيدة،
كيف تُمسِك الطبيعة الجبارة بأَزِمَّة الأشياء؟
وبأية قوانين تحفظ العناية هذا العالم المترامي،
وتكبح الأشياء بأرسانٍ لا تنفلت،
وتوثق كل شيءٍ بوثاقٍ لا انفصام له.

* * *

قد يلبس أسدُ قرطاج سلاسل الأسر المزركشة،
ويتناول لُقَم الطعام المقدَّم باليد،
ويهاب مُرَوِّضه الفظَّ وسوطه الذي يعرفه جيدًا
ولكن دَع الدم مرةً واحدةً يمس فكَّه المُشعر
هنالك تعود إليه روحه الكامنة،
وبزئيرٍ عميقٍ يتذكَّر ذاتَه القديمة،
ويكسرُ الأغلالَ عن عنقه،
ويكون مَرَوِّضه هو أول مَن تمزقه أنيابه الضارية،
ودماؤه الطازجة المتفجرةُ تُصعِّد الشِّرة العائدة.

* * *

الطائر الذي كان يُشقْشِقُ ويزقزق على أعلى الغصون،
أُخِذ من الشجرة إلى القفص
أكوابُ العسل لديه،
ولديه موفورُ الوجَبات ... والملاطفات،
ولكنه كلما رفرف إلى أعلى قفصه،
ولمَح ظلالَ الغابات التي يَهْواها
بعثر الطعامَ وداسَه،
فليس غير الغاب ما يَشْوقُه في أساه،
وليس لغير الغاب يُرسِل هَمَساته العذبة.

* * *

الغصن الأُملود الذي أَلْوَت به اليد بقوة،
وبلغت بقمتِه إلى الأرض،
ما أن تُرفع عنه يد الإرغام،
حتى يرتدَّ إلى أعلى ويَشْخَص إلى السماء.

* * *

يهبطُ فويبوس (الشمس) في الأمواج الغربية،
ولكنه عبر مَمَره السِّرِّي المجهول،
يعود مستديرًا بعربته مرةً أخرى إلى مشارقه المعتادة.

* * *

كلُّ شيءٍ لا بد أن يعود إلى سبيله الصحيح،
ويبتهج بعودته،
فلا شيء يمكن أن يحفظ النظام الذي أُودعه،
ما لم يربط مبدأه بمنتهاه،
ويصنع فَلَكه الدائري الثابت.

الفصل الثالث

الثروة والحاجة

أنتم أيضًا يا أبناء الأرض تحلمون بحالتكم الأولى، وإن خَفَتت الرؤية، إن لديكم بالفعل فكرةً ما، وإن تكن غامضةً، عن الهدف الحقيقي: السعادة؛ ومِن ثَم فإن توجهًا نظريًّا يحدوكم إلى الخير الحقيقي، وما يَحِيد بكم عنه سوى الأخطاء على اختلافها.

انظر إذن هل يمكن للبشر حقًّا أن يصلوا إلى هدفهم الذي حدَّدوه، أي السعادة، من خلال هذه الوسائل التي يعتقدون أنها توصلهم إليه، فإذا كان المال أو المنصب أو بقية هذه الأشياء تَجْلُب بالفعل حالةً معينة لا يُعوِزها أيُّ شيءٍ من الأشياء الخيِّرة فسوف أسلِّم معك أن بعض الناس يبلغون السعادة حقًّا خلال امتلاك هذه الأشياء، أما إذا كانت تُخلِف وعودَها وتظل مفتقرةً إلى ألوانٍ أخرى من الخير فمن الواضح البيِّن أن أصحابها إنما يقبضون على مظهرٍ كاذبٍ للسعادة.

لذا سأسألك أولًا بضعة أسئلة، ما دمت أنت شخصيًّا كنت رجلًا ثريًّا حتى وقتٍ قريب، ألَم يؤرِّق عقلَكَ قط، وأنت في أوج ثرائك، همٌّ ناجمٌ عن شعورك بأن ثمة ظلمًا وَقَع؟

قلت: «بلى، الحق أني لا أكاد أذكر أن عقلي قد خلا يومًا من مثل هذا الهم.»

ف: «وكان ذلك إما لافتقادك شيئًا لم تكن تَوَدُّ افتقاده، وإما لوجود شيءٍ كنت تُفَضِّل ألا يوجد؟»

ب: «نعم.»

ف: «فكنت تَوَد وجود شيءٍ ما، وغياب شيءٍ آخر؟»

ب: «نعم.»

ف: «المرء إذن ينقُصُه شيءٌ ما — ما دام يفتقد هذا الشيء. أليس كذلك؟»

ب: «بلى.»

ف: «وما دام الإنسان ينقصه شيء ما، فهو إذن ليس مكتفيًا بذاته من كل الوجوه؟»

ب: «نعم.»

ف: «وقد شَعَرت بهذا النقص رغم كونك متمتعًا بالثروة؟»

ب: «شَعَرت حقًّا.»

ف: «إذن فلا يمكن للثروة تلك أن تَنْفِي عن المرء الحاجة وتمنحَه الاكتفاء، رغم أن هذا بعينه هو ما تَعده به الثروة، وثمة نقطةٌ أخرى أراها شديدة الأهمية: وهي أن المال في ذاته لا يتحلى بخاصيةٍ طبيعيةٍ تمنَعُه من أن يُسلب من أصحابه رغمًا عنهم.»

ب: «أُوافِقُك في ذلك.»

ف: «وليس لك إلا أن توافق ما دام بالإمكان في أي وقت أن يخطفَه مَن هو أقوى منهم، وإلام تهدف القضايا المرفوعة في المحاكم إن لم تكن تهدف إلى ردِّ الأموال التي تمت سرقتها بالاحتيال أو بالعنف؟»

ب: «هذا حق.»

ف: «المرء إذن سيكون بحاجةٍ إلى عونٍ خارجي لكي يحمي مالَه؟»

ب: «نعم.»

ف: «ولكنه لن يحتاج إلى هذا العون ما لم يكن لديه مالٌ يمكن أن يَفقِده؟»

ب: «لن يحتاج بكل تأكيد.»

ف: «لقد انعكست القضية إذن! فإذا بالثروة التي يُرتَجى منها أن تجعل المرء مكتفيًا بذاته قد أحوَجَتْه في الحقيقة إلى عون الآخرين، فإذا كان الأمر كذلك فكيف نقول بأن الثروة تنفي الاحتياج؟ ألا يشعر الأغنياء بالجوع أو العطش؟ ألا يرتعد الأثرياء لبرد الشتاء؟ ستقول بَلَى ولكن الأغنياء لديهم الوسائل التي يَدرَءون بها الجوع والعطش وبرد الشتاء، ولكني أرُد بأن الثروة قد تسد الحاجة ولكنها لا تذهب بها تمامًا، فمهما تُشْبِعْ من هذه الحاجات النعَّابة والطلبات المستمرة تبق هناك بالضرورة تلك الحاجة التي تطالب، بدورها، بالإشباع، وغنيٌّ عن القول إن الطبيعة يكفيها القليل، أما الجشع فلا يُشبعه شيء، ومن ثم فإني أسألك: إذا كانت الثروة لا تذهب بالحاجة، بل تَخْلق حاجاتها الخاصة، فكيف تذهب إلى أنها سبيل الإشباع والاكتفاء؟!»

مهما اكتَنَز الغَنِيُّ
من مالٍ وفير لا يُشبع جشعًا،
ومهما أثقل الغَنيُّ جيدَه بلآلئ فارسية،
وذَرَعَت ثيرانُه مائة عزبةٍ خصيبة،
فإن الهمَّ لن يفارقه في حياته،
والثروة الخائنة لن ترافقه في مماته.

الفصل الرابع

المناصب والتبجيل

قلت: «غير أن مناصب الشرف تجعل من يَتَسنَّمها مرموقًا وموقَّرًا من الناس.»

فأجابت: «فهل في هذه المناصب قدرةٌ حقًّا على أن تَغْرِس الفضائل في نفوس أصحابها أو أن تقتلع الرذائل منها؟ كلا … بل العكس هو الصحيح، فالأغلب أنها لا تقتلع الرذائل بل تكشفها وتخرجها إلى وضح النهار؛ لذا تجدنا نغضب ونَسخَط إذ نرى المناصب تَؤُول في الأغلب إلى أشد الناس لؤمًا وأكثرهم شرًّا، هذا ما دفع كاتولوس Catullus إلى أن يسمي نونيوس Nonius ب «الورم»، على الرغم من المنصب الرفيع الذي كان يتربَّع عليه.

ألا ترى أن المناصب لا تزيد الأشرار إلا خزيًا؟ وأن تفاهتهم ما كانت لتتكشَّف للملأ لولا شهرة المنصب؟ أنت نفسك، هل كان بوسع أي قوةٍ أن تدفعَك إلى مزاملة ديكوراتوس Decoratus حين تستعيد في ذهنك كم كانت نفسه دنيئةً وكم كان مهرِّجًا واشيًا؟ … لا، ما كان لنا أن نُوقِّر للمنصب مَن ليس أهلًا للمنصب! بينما لا يسَعُنا إزاء من أوتي الحكمة سوى أن نراه أهلًا للتبجيل، أو أهلًا، على أقل تقدير، للحكمة التي أُوتِيها، أليس كذلك؟»

ب: «بلى.»

ف: «ذلك أن للفضيلة قيمتها الذاتية التي تنتقل مباشرة إلى كل من يمتلكها، أما المناصب العامة فليست من ذلك في شيء، ومن البَيِّن، إذن، أنها تفتقر إلى أي جمالٍ أو قيمةٍ في ذاتها، ثمة نقطةٌ أخرى ينبغي التركيز عليها بشكلٍ خاص: وهي أن المرء يزداد خزيًا كلما ازداد عدد الذين يزدرونه من الناس، وحيث إن المنصب الرفيع يضع المرء نصب أعين الناس ولا يملك في الوقت نفسه أن يسبغ قيمةً على فاقدها، فالمنصب أجدر، من ثم،

أن يجعل صاحبه في وضعٍ أشد زراية! إنه وضعٌ يحمل معه عقابه: فالأشرار يضفون صفتهم المقيتة على مناصبهم التي يتولونها: فيُدنِّسونها بدَنَسهم ويشِينونها بشَيْنِهم.

أريدُك أن تُدرِك أن الاحترام الحقيقي لا يأتي من هذه المفاخر الوهمية، هَبْ رجلًا تَقَلَّد منصب القنصل مراتٍ عديدةً في روما، ثم رمت به الظروف في بلاد البرابرة، تُرى هل تجعله مناصبه موقرًا من جانبهم؟ فلو أن الوقار صفةٌ طبيعيةٌ في المناصب لما فارقها في أي مَحَلٍّ من العالم، تمامًا مثلما أن النار حارةٌ في أي مكان من الأرض، ولكنه ليس صفةً طبيعية وإنما تلصقه بالمناصب آراء البشر الزائفة، ومن ثم يزول عنها بمجرد أن يوضع أصحابُها بين أناسٍ لا يقيمون لها وزنًا.

هذا ما يكون بين الأجانب، ولكن هل يدوم مجد المناصب إلى الأبد في بلدها الأصلي؟ انظر كم كان عظيمًا شأن البريتور[١] في روما القديمة، ولكنه اليوم لا يعدو أن يكون لقبًا فارغًا وعبئًا ثقيلًا على دخل أي رجلٍ من طبقة القناصل، كذلك كان متعهِّد الغلال، ولكنه اليوم في أدنى مكان، فكما قلت منذ هنيهة: إذا لم يكن للشيء جمالٌ بذاته فإن كرامتَه تتفاوت باختلاف الأوقات وفقًا لرأي المعنيين به.

إذا كانت المناصب إذن لا تجعل أحدًا جديرًا بالإجلال، وإذا كانت فوق ذلك تتلوث باتصالها بالأشرار، وإذا كان بريقها يخبو بتغير الزمن، وإذا كانت قيمتها تقل في تقدير الأمم الأخرى، فبربك قل لي أي جمالٍ يمكن أن تُسبغه المناصب على الناس، بل أي جمالٍ فيها، هي ذاتها، يستحق الطلب؟»

رغم أن نيرون المغرور كان يَرْفُل في ثيابه الأرجوانية
المرصعة باللآلئ البيضاء الثلجية،
فقد كان هذا المترفُ الوحشيُّ بغيضًا إلى الجميع،
ولكنه كان يُقلِّد مناصبه المشينة أحيانًا شيوخًا أَجِلاء
مَن إذن يمكن أن يعُدَّهم مُكَرَّمين
أولئك الذين يدينون بمكانتهم العالية لمثل هذا الوغد.

---

[١] البريتور Praetor هو الحاكم القضائي عند الرومان، ومنصبه يأتي بعد القنصل الروماني أي رأس السلطة التنفيذية، ومهمته القيام على العدالة والتشريع.

الفصل الخامس

الملك والسلطة

«هل المُلك أو صداقة الملوك تمنح المرءَ قوةً؟» إذا كان الجواب هو «نعم؛ لأن سعادتهم دائمة لا تنقطع» فسوف أجيبه بأن التاريخ الماضي، والحاضر أيضًا، يَعجُّ بأمثلةٍ لملوكٍ تبدَّلت سعادتهم نكباتٍ، فما أروع السلطة، التي يتكشَّف أنها عاجزةٌ حتى عن أن تحفظ نفسها!

ولكن إذا كانت هذه السلطة المُلكية تجلب السعادة حقًّا فإن أي نقصان فيها يعني انحسارًا للسعادة وبدايةً للشقاء، أليس كذلك؟ ومهما اتسعت الإمبراطوريات فمن المحتم أن يبقى كثيرٌ من الناس خارج نطاق أي ملك، وحيثما انتهت القوة التي تجلب للناس السعادة دبَّ فيهم الضعف وسبَّب لهم الشقاء، ومِن ثَمَّ فلا بد أن هناك قسطًا أكبر من الشقاء لدى الملوك، كان الطاغية ديونيسيوس Dionysius يعرف جيدًا مخاطر المُلك، إذ أخذ يمثِّلها لداموقليس Damocles بأن جعل سيفًا يتدلَّى فوق رأسه معلقًا بشعرةٍ واحدة.[1]

فأي سلطةٍ هذه التي لا تستطيع أن تُسكت هواجس القلق أو تتخلص من وخزات الخوف؟ يود الملوك أن يعيشوا من دون خوف، ولكن لا يستطيعون، ومع ذلك يتباهون بسلطتهم! هل تَعُده قويًّا ذلك الذي تراه يتمنى شيئًا لا يستطيع بلوغه؟ أو هل تعده

[1] يُروَى أن ديونيسيوس طاغية سيراقوسة (٤٣٠–٣٦٧ق.م) أراد ذات يومٍ أن يضرب لتابعه داموقليس مثلًا لحياة الملوك الحقيقية وهوانها وهشاشتها، بعد أن بالغ داموقليس في إطراء حظه وسعادته، فدعاه إلى مائدةٍ فخمة حافلة بما لذَّ وطاب، على أن يجلس عليها وقد تَدَلَّى فوق رأسه سيفٌ حادٌّ معلَّقٌ بشعرة حصان.

قويًّا ذلك الذي لا يمشي إلا مخفورًا بحرسٍ لأنه أشد خوفًا من رَعِيته الذين يُرهبهم، والذي لا بد له، لكي يبدو قويًّا، من أن يعيش تحت رحمة من يخدمونه؟

وإذا كان المُلْك نفسه على هذا القدر من الضعف فما بالُك بالحاشية والبلاط؟ إنهم منكوبون بالملك لا في حالة سقوطه فحسب، بل وفي ظلِّه وذَراه! ألم يُرغم نيرون صَفِيَّه ومعلِّمه سينيكا Seneca على اختيار الميتة التي يرضاها؟[2] وبابينيانوس Papinianus الذي كان ذا نفوذٍ طويلٍ في البلاط، ألم يُسلمه الإمبراطور أنطونينوس كاركالا A. Carcalla لسيوف جنده؟[3] لقد أراد كلاهما أن يتنازلَ عن سلطته، بل لقد حاول سنكا أن يعطي ثروتَه لنيرون ويحال إلى التقاعد، ولكن لم يَنَل أيٌّ منهما مَأْرَبه، وهوت به ثروته ونفوذُه إلى الهلاك مثلما يهوي بالشيء ثِقلُه ووزنُه.

أي سلطة هذه التي تَبُث الخوف في نفوس أصحابها، إن رغبت فيها لم تمنحْك الأمان، وإن رغبت عنها لم تتركك وشأنك؟ ولن ينفعَك إذَّاك أيُّ صديقٍ ربَطَته بك ثروتُك لا فضيلتك، فصديقُك في السراء ينقلب عدوًّا في الضراء، وليس أقدر على الأذى من صديقٍ انقلب عدوًّا.[4]

---

[2] كان سينيكا معلم نيرون في صباه ثم مستشاره حين صار إمبراطورًا، وحدث من فظائع نيرون ما هو مشهور من تقتيل وتشريد، وكتب سينيكا إلى نيرون كتابًا أسماه «الرحمة» ... وفكر سينيكا آخر الأمر في أن يعتزل الحياة العامة، وأراد النزول عن جميع أملاكه، فأبى عليه ذلك نيرون، واتهم الفيلسوف بالاشتراك في مؤامرة سياسية، وأُجبر على الانتحار بأمر نيرون، ورغبت زوجة سينيكا أن تموت معه، واجتمع أصدقاؤهما، وقطع سينيكا شريانًا من شرايين ذراعه، وكذلك فعلت زوجته، وشرع سينيكا يلقي خطبةً من أبلغ خطبه على جمعٍ من رفاقه والدم يسيل من جراحه، حتى مات، أما امرأة سينيكا فعولجت بأمر الإمبراطور حتى شفيت من جراحها («حوليات» ثاكيتوس، انظر «الفلسفة الرواقية» للدكتور عثمان أمين، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧١م، ص٢٣٠–٢٣١).

[3] كان إيميلوس بابينيانوس واحدًا من أعظم القانونيين الرومان، وقد أعدمه الإمبراطور كاركالا عام ٢١٢م.

[4] يقول الشاعر العربي في ذلك المعنى:

احذَر عدوَّك مرةً واحْذَر صديقَك ألف مرة
فلربما انقَلَب الصديق وكان أعلَمَ بالمضرَّة

من يُرِد أن يكون ذا سلطانٍ حقيقي
فلْيَبْسُط سلطانه أولًا على نفسِه[٥]
ولا يَخضَع لِحُكم أهوائه،
ويستسلم لنيرها المُوبِق،
قد تعنو الأرضُ لحُكْمِك،
فترتعد له أقاصي الهند،
وتنحني «ثولي» خضوعًا،
ولكن، ما دُمتَ لا تستطيعُ أن تطردَ الهمومَ السود،
ولا أن تنفي الهواجسَ المعذِّبة
فلستَ بملكٍ بل عبد![٦]

ويقول ابن الرومي:

عدوُّك من صديقك مستفادٌ   فلا تستكثرَنَّ من الصِّحاب
فإن الداء أكثر ما تراه   يَحُول من الطعام أو الشراب
إذا انقلَب الصديق غدًا عدوًّا   مُبينًا والأمورُ إلى انقلاب

[٥] يقول أفلاطون في «الجمهورية»: «الطاغية هو أشقى الناس وأشدهم عبوديةً؛ لأنه يتصدى لحكم الآخرين في الوقت الذي يعجز فيه عن حكم نفسه» (الجمهورية ٥٧٦، ٥٧٩).

[٦] أو «عَبْد في الأُرجُوان» على حد تعبير إبيكتيتوس.

الفصل السادس

المجد والحسب

فما أخبَثَ المجد حقًّا وأقْبَحَه، وما أصدق قول يوريبيديس على لسان أندروماخي:

أيها المجد … أيها المجد كم رَفَعت
من حياةٍ تافهةٍ لعددٍ لا يُحصَى من الفانين.

كثيرون هم حقًّا أولئك البشر الذين اكتسبوا شهرةً عظيمةً من خلال الآراء الزائفة للدهماء، وليس أقبح من ذلك، وما أجدر الذين ينالون الثناء بلا استحقاق أن يخجلوا من سماع المديح، وحتى لو كان المديح مستحقًّا فإنه لا يمكن أن يُضِيف أيَّ شيء إلى مشاعر الفيلسوف: لأنه لا يقيس سعادتَه بالشعبية والرواج بل بصوت ضميره الصادق.

فإذا راق المرء أن يكون مشهورًا فمن المتعيَّن أن يستخزي بنفس الدرجة إذا كان مغمورًا، ولكني قلت منذ قليل إن هناك بالضرورة شعوبًا كثيرة لا يمكن أن يسافر إليها صيت رجلٍ واحد، بحيث ترى الرجل مشهورًا هنا بينما أحدٌ لم يسمع به قط في الصُّقع التالي من الأرض؛ لذا أرى أن الشهرة لا تستحق حتى أن تُذكر في هذه القائمة: إن مجيئها اعتباطيٌّ وبقاءها غير مضمون.

أما عن دعوى الحسب والنسب فليس يخفَى على أحدٍ خواؤها وتفاهتُها، فإذا كانت تَصدُر عن الشهرة فهي نبالةٌ مستعارة لا فضل للمرء فيها بل الفضل للآباء والأجداد، وإن فضلَ الغير لا يمكن أن يسبغَ مجدًا على مَن هو عاطلٌ من المجد، وأرى أنه إذا كان ثمة من خيرٍ في الحَسَب فهو هذا، وهذا وحده: أنه يفرض على الحسيب ألا يُقصِّر عن أسلافه في الفَضل.

من أصلٍ واحدٍ نبت أهل الأرض جميعًا،
واحد فرد هو أبو الجميع، ومدبِّر الكل
أعطى الشمس ضياءها، والقمر هلاله
وذَرَأ البشر في الأرض، والنجوم في السماء
بثَّ في الأجساد أرواحَها التي هَبَطت إليها من الأعالي،
فهي العِرقُ النبيل الذي خصَّ به البشر جميعًا
لماذا إذن تفتخرون بالأجداد؟
اذكروا الأصل الذي يَنْميكم،
وانظروا من الذي بَرَأَكم — إنه الله،
ليس ثمة من وضيعٍ أو دنيءٍ سوى من أحاطت به خطاياه،
وتجافَى عن أصلِه الحقيقي إلى ما هو أدنَى وأوضَع.

الفصل السابع

اللذة والأسرة

وماذا أقول عن لذة الجسد؟ إن السعيَ إليها محفوفٌ بِالهم، والشِّبع منها مملوءٌ بالندم، كما أورثت أجسادَ المتهالكين عليها من أسقامٍ وتباريح، وكأنها ضربٌ من عقاب الإثم، لست أفهم أي سعادةٍ في الشهوات إذا كان الأسى هو نهاية اللذة، ويَعرِف ذلك كل من يتجشَّم استعادة ذكرى انغماساته، فإذا قيل إن لذة الجسد يمكن أن تجلب السعادة، فلماذا لا نقول عن البهائم إنها سعيدة وهي لا تسعى في حياتها لغير إشباع حاجات الجسد؟!

حقًّا إن في الزوجة والأبناء لمتعةً جد شريفة، ولكم كم ذا نرى من رجلٍ لقي شقاءه في أبنائه، وأنت أدرى الجميع بمرارة هذه الحال، لقد خبرت بنفسك هذه الأشياء ولم تَسْلَم مع ذلك من الهم، ألا يحقُّ إذن ليوريبيديس أن يَصفَ من لا أبناء له بأنه «سعيدٌ في شقائه؟!»[1]

لجميعِ اللذات طبعٌ واحد
أن تُغري تابعيها وتَنْخَسهم إليها
لكنها، كَسِرب النحل المُدوِّم،
تَذُرُّ عسلَها الحلو،
ثم تفرُّ بعيدًا، تاركةً في قلب مَن تمسُّه
لدغةً لا تزول.

[1] عن مسرحية «أندروماضي» ليوربيدس (٤١٩–٤٢٠) حيث يقول يوريبيديس: «إن من يشكو من أنه بلا أبناء (أبْتَر) لأقل شقاءً ممن له أبناء، وهو مُنعَّمٌ في شقائه.»

الفصل الثامن

الدوافع الزائفة إلى السعادة

ما من شك، إذن، أن جميع هذه الطرق إلى السعادة هي تُرَّهاتٌ لن تصلَ بنا إلى الغاية التي وَعَدَتنا بها، وإن الشرور التي تكتنفها لهائلةٌ كما سأبيِّن لك باختصار.

فإذا أردت أن تَدْخر مالًا فإنك، لا بد، مُنْتزِعه من حائزيه.

وإذا أردت أن تتألق في أبهة المنصب فسوف يتعَيَّن عليك أن تنبطح لمن أنعم عليك به: أي أنك إذا أردت أن تَبُزَّ الآخرين في الكرامة سيكون عليك أن تُرخِص نفسك وتهينها بالتَّزَلُّف!

وإذا أردت السلطة فلا بد من أن تُعرِّض نفسك لمؤامرات رعاياك وأن تتجشَّم مخاطر جسيمة.

وإذا استهوتك الشهرة والمجد فسوف تجد نفسك في مسلكٍ وَعْر، تتقاذفُك الدروب وتشتبه عليك المسالك إلى أن تُضنيك الهموم وتمحوك.

وإذا قلت أَحُبُّ في الملذات ما حييت فسوف يَلْفِظك الجميع بازدراء، باعتبارك خادمًا لأحقر مولًى، وعبدًا لأهش سيد — الجسد. أو فانظر كم هي تافهةٌ تلك الغاية التي تَهوِي إليها قلوب عبدة الجسد، وكم هي قلقةٌ غير مضمونة، وهل بوسعك أن تفوق الفيل ضخامةً، أو الثور قوةً، أو النمر سرعة؟ انظر إلى قبة السماء وتأمل ثبات بنائها ورشاقة حركتها وكف عن الإعجاب بما لا يستحق الإعجاب، على أَنَّ أعجَبَ من السماء العقل الذي يُسيِّر السماء.

إن جمال الجسم هاربٌ وعابرٌ وأسرع زوالًا من زهور الربيع، وإذا كان لنا، كما يقول أرسطو، بَصَر لينكيوس Lynceus[1] الأسطوريُّ الثاقب الذي يَنفُذ في الأشياء، فإن جسد ألكيبياديس Alcibiades[2] البديع في ظاهره سيبدو لنا شديد القبح بمجرد أن نرمُق أحشاءه، ليست طبيعتك نفسها ما يجعلك تبدو جميلًا بل ضعف أبصار من ينظرونك، فتَعشَّق مفاتن الجسد كما تشاء، ولكن تَذَكَّر أن ثلاثة أيامٍ من الحُمَّى لن تُبقي لها أثرًا.

وصفوة القول إن هذه الأشياء، التي لا تأتي بالخير الذي وعدت به ولا تبلغ كمال الخير إذا اجتمَعَت، ليست هي الطريق إلى السعادة، ولا يمكنها بذاتها أن تجعل الناس سعداء.

وا أسفاه، يا للجهل الفاجع
الذي يُضِلُّ بني الإنسان عن سواء السبيل،
مَن ذا الذي يُنَقِّب عن الذهب في أغصان الشجر؟
وعن الجواهر في عرائش العنب؟
ويَنصِب شباكَه في قمم الجبال
ليصيدَ أسماكَ الوليمة؟
أيُّ صيادٍ يلتمس العَنَز البريَّ في عُرض البحر؟!
... ...
إنهم لَيَعرفون أي مياهٍ تزخَرُ أعماقها بالدر المكنون،
وأي سواحل تزخرُ بالأرجوان،
ويعرفون أن يُلتمس السمكُ الطري،
وأين يُلتمس المحار،
ولكنهم سادرون في عَماهم

[1] لينكيوس، في الميثولوجيا اليونانية، واحد من بحارة السفينة أرجونوت الذين لديهم بصرٌ ثاقبٌ يستطيع أن يرى في الظلام، ويستطيع أن يكشف مكان الكنز المخبوء.

[2] ألكيبياديس قائدٌ أثيني في أواخر القرن الخامس قبل الميلادي، اشتهر بالثروة والجمال وبسوء استخدامه لهما، ذكره أفلاطون في محاورة «المأدبة» Symposium.

لا يعرفون أين يَكمُن الخير الذي يريدون،
ويهبطون إلى الأرض
ينبشون فيها عمَّا هو أعلى من السماء.

* * *

أية لعنةٍ بحجم غفلتكم يمكن أن أستنزلها عليكم؟
الهَثوا وراء الثروة والمجد،
وحين يستوِي لكم منهما ركامٌ زائف؛
هنالك تُدركون ما هو الخير الحقيقي.

الفصل التاسع

وحدة الخير الحقيقي

«لعلَّني الآن قد عرضتُ لك صورةَ السعادة الزائفة عرضًا وافيًا، فإذا كنت قد تَبيَّنتَها بوضوحٍ فإن مهمتي التالية هي أن أبيِّنَ لك ماذا تكون السعادةُ الحقة.»

قلت: «إنني أرى حقًّا أن الثروة لا تُغْني، وأن القوة لا شأن لها بالمُلك، ولا الاحترام بالمنصب، وأن المجد الحقيقي ليس بالشهرة، والسعادةَ الحقيقية ليست نتاجَ الملذات.»

ف: «ولكن هل فهمتَ السبب وراء ذلك؟»

ب: «أظن أن لديَّ فكرةً غائمةً عنها، ولكني أَوَدُّ أن أتعَلَّم منك بوضوحٍ أكبر.»

ف: «السبب في غاية الوضوح: يكمن خطأ الإنسان في أنه يأخذ ما هو بسيطٌ وغير قابلٍ للانقسام فيحاول تقسيمه، فيُحِيل حقيقته إلى زيفٍ وكماله إلى نقص، قل: هل يمكن أن نَصِف الشيء الذي يكتفي بذاته ولا يحتاج إلى غيره بأنه بلا قوة؟»

ب: «كلا، على الإطلاق.»

ف: «بالطبع لا؛ لأنه إذا كان به ضعفٌ ما في جانبٍ من الجوانب لاحتاج بالضرورة إلى عون شيءٍ آخر.»

ب: «هو ذاك.»

ف: «إذن الاكتفاء والقوةُ شيءٌ واحد، وطبيعةٌ واحدة؟»

ب: «يبدو ذلك.»

ف: «أترى كائنًا بهذا الحال جديرًا بالاحتقار أم، على العكس، جديرًا بكل احترام؟»

ب: «بكل احترام من دون أدنى شك.»

ف: «إذن دعني أضيف حالةَ الاحترام إلى الاكتفاء والقوة، بحيث تكون ثلاثتها شيئًا واحدًا.»

ب: «لا بدَّ من ذلك إن كنا ننشُدُ الحقيقة.»

ف: «ما ظنَّك إذن بمثل هذا التضام؟ أيكون خاملًا أو نكرةً، أم يكون ذا صيت وشهرة؟ إذا سلَّمت بأنه لا يُعوزه شيءٌ، وأنه يمتلك كل القوة، وأنه جديرٌ بكل الاحترام، أيمكن إذَّاك أن يعوِزَه أيُّ مجدٍ يحوزه لنفسه فيُستهان به من أي جهة؟»

ب: «كلا، بل لا يَسَعُني إلا أن أسلِّم بمجده أيضًا.»

ف: «يترتب على ذلك أن الصيت والمجد والسمعة لا تختلف عن الثلاث الأُخريات؟»

ب: «نعم.»

ف: «إذن، إذا كان ثمة كائنٌ مكتفٍ بذاته، قادرٌ على تحقيق كل شيء بقدراته الخاصة، مجيدٌ، وجديرٌ بالاحترام، فمن المؤكد أنه سيكون مفعمًا بالسعادة؟»

ب: «ومن أين يتسللُ الأسى إلى مثل هذا الكائن؟ فلا بد أن نسلِّم، ما دام محتفظًا بصفاته الأخرى، بأنه مفعَمٌ بالسعادة.»

ف: «ولنفس السبب فلا فكاكَ من هذه النتيجة أيضًا: الاكتفاء، والقوة، والمجد، والاحترام، والسعادة، تختلف في الاسم ولكن لا تختلف في الجوهر؟»

ب: «نعم.»

ف: «إذن حين يعمد البشر بحماقتهم إلى تَجزِيء ما هو بطبيعته واحدٌ وبسيط، وإلى تحصيل جزءٍ من شيءٍ لا أجزاء له، فإنهم لا يحصلون على الجزء — الذي لا وجود له، ولا على الكل — الذي لا يولونه اهتمامًا.»

ب: «وكيف يحدث ذلك؟»

ف: «حين يسعى امرؤٌ إلى الثروة بأن يحاول أن يتجنب الفقر، فإنه لا يعمل على نيل القوة، وهو يُفضِّل أن يكون مغمورًا وخاملًا، بل ويحرم نفسه من مَسَرَّات الطبيعة لكي لا يفقد المال الذي حازه، ولكن من المؤكد أنه لا يحقِّق اكتفاءً بهذه الطريقة، إذ هو مفتقرٌ إلى النفوذ ومعرضٌ للمضايقات، وهو قليلُ الشأن لأنه قليل الاعتبار مغمورٌ خاملٌ نكرة، وإذا سعى امرؤٌ إلى السلطة وحدها فإنه يُبدِّد المال ويُضحِّي بالثروة، ويحتقر المسرات والشرف ويرى المجد غير ذي قيمة، ولكن بوسعك أن ترى كم يخسر

هذا الشخص: تُعْوِزُه دومًا ضرورات الحياة، ويتملكه القلق ويستبد به، فيفتقد السلطة أيضًا التي يريدها فوق كل شيء، والشيء نفسه ينطبق على الشرف والمجد والملذات، فكلها سواء، ومن ثم فإن الذي يسعى إلى واحدةٍ منها بحيث يُقصِي الأخريات لن يظفر حتى بالتي يسعى إليها.»

ب: «ماذا إذن لو أراد شخصٌ ما أن يظفر بهن جميعًا في الوقت نفسه؟»

ف: «عندئذٍ سيكون راغبًا في مجموع السعادة، ولكن أتظنُّ أنه واجدها بين هذه الأشياء التي أثبتنا أنها عاجزةٌ عن أن تقدمَ ما تَعِد به؟»

ب: «لا.»

ف: «من المحال إذن أن يجد السعادة في هذه الأشياء التي يظن أنها تحقق كلًّا من الحالات المطلوبة على حدة؟»

ب: «صدقت، ولا يمكن أن يقال ما هو أصدق من ذلك.»

ف: «لديك إذن طبيعة السعادة الزائفة وسببها معًا، فلتُحوِّل نظرتك الآن في الاتجاه المقابل ولسوف ترى لتوِّك السعادة الحقيقية التي وَعَدت بأن أبينَها لك.»

ب: «إنها لواضحةٌ حتى لمن هو أعمى، ولقد كشفتها الآن عندما كنت تحاولين الكشف عن أسباب السعادة الزائفة، فالسعادة الحقيقية والكاملة، إن لم يجانبني الصواب، هي ذلك الذي يجعل الإنسان مكتفيًا وقويًّا وجديرًا بالاحترام ومجيدًا ومبتهجًا، ولكي أثبت لك أنني على فهمٍ عميقٍ للأمر، أقول إن بوسعي، دون أدنى شك، أن أرى أن هذه هي السعادة الحقيقية التي يمكن أن تُضفي بالفعل أيَّ واحدة من هذه الحالات، حيث إنها جميعًا شيءٌ واحد.»

ف: «بُوركت يا بُني، فقط أريد أن أضيف شيئًا واحدًا.»

ب: «ما هو؟»

ف: «هل تعتقد أن في حياة الفانين الزائلين أي شيءٍ يمكن أن يمنح هذه الحالة؟»

ب: «لا أعتقد، وقد بينت ذلك على أتم وجه.»

ف: «من الواضح إذن أن هذه الأشياء تقدم للإنسان ظلال الخير الحقيقي فحسب، أو نعمًا منقوصةً لا غناء فيها، ولا تُقرِّبه إلى الخير الحقيقي والكامل.»

ب: «نعم.»

ف: «وما دمت قد أدركت طبيعة السعادة الحقيقية ورأيت تقليداتها الزائفة، يبقى الآن أن ترى أين تُلتمَس هذه السعادة الحقيقية.»

ب: «وهو ذات الشيء الذي طال اشتياقي إلى رؤيته.»

ف: «ولكن عون الله لا بد من أن يُطلب في الأمور الصغيرة والكبيرة كما قال تلميذي أفلاطون في محاورة طيماوس Timoeus[١] فماذا، في اعتقادك، ينبغي علينا أن نفعله الآن، حتى نكون جديرين باكتشاف مصدر هذا الخير الأسمى؟»

ب: «ينبغي أن نبتهل إلى أبي الأشياء جميعًا، فبدون ذلك لا يُستهلُّ عملٌ ولا يُشمَّر لأمر.»

قالت: «حقًّا»، وأنشأت تغني:

يا من تُدبر الأمر بقانونٍ سرمد،
خالق الأرض والسماء،
يا من أتيت بالزمان من الأزل،
يا من تُحرِّك كل شيء ولا تتبدَّل
لم يكن شيءٌ يرغمك على أن تصوغَ كتلةَ المادة المتقلبة،
ولكن فيك يقبع مثال الخير الأسمى،
فبرأت كلَّ الأشياء وفق مثالك العلوي
أنت، أيها الجمال الأسمى، في عقلك تحمل العالم الجميل،
وتُشكِّله على ذاك المثال،
آمرًا الأجزاء التامة الخلق أن تستوي كلًّا تامًّا،
تضم العناصر معًا بانسجامٍ وتسلُكُها في نظام؛
فيتوازن الشيء بنقيضه: الحار بالبارد، والرطب باليابس،
وعن الحدِّ لا تخفُّ النار،

[١] في محاورة «طيماوس» لأفلاطون يقول طيماوس، قبل أن يُكبَّ على وصفه كيف بدأ العالم، إن علينا بدعاء جميع الآلهة والإلهات لأن «كل من لديه أدنى حس فهو يدعو الله دائمًا لدى شروعه في أي عمل، صغيرٍ أو كبير.»

ولا التراب يَثقل
خلقت الروح ثلاثية الطبيعة وسيطًا بين العقل والأجسام المادية
تتخلل جنبات الطبيعة،
وما أن انفصلَت الروح حتى اتخذَت مسارَها في دائرتين
لَفَّت وعادت إلى ذاتها، مُحوِّطةً العقل
وأدارت قبة السماء بنفس الطريقة،
ومن عللٍ مماثلةٍ برأت الأرواح والحيوات الأدنى،
التي نَثَرتها من الأعالي في مركباتٍ رشيقة
خلال السماء والأرض،
وهي تكدح بقانونك السمح لتعود إليك في النهاية
خلال النار التي تعيدها إلى دارها.

* * *

هب لنا يا أبانا أن تصعد عقولنا إلى عرشك الأجل،
وأن نرى نبع الخير الحق،
واجعل لنا نورًا ننظر إليك بعيونٍ مبصرة،
بدِّد الغيوم الثِّقال لهذا العالم المادي،
تَجَلَّ لنا في بهائك كلِّه فأنت العدل،
وأنت السلام والسكينة للعابدين،
رؤيا جلالك هي منتهى أمانينا،
أنت مُبدِئنا وبارئنا ومولانا وطريقُنا وغايتنا.

الفصل العاشر

الله هو الخير والسعادة

«أما وقد رأيت صورة كلٍّ من الخير الناقص والخير الكامل، فأظن أن واجبي الآن أن أُبيِّن لك أين تُلتمس هذه السعادة الكاملة، وأعتقد أن أول سؤالٍ علينا أن نسأله هو ما إذا كان أي خير من هذا النوع يمكن أن يوجد في طبيعة الأشياء، وذلك حتى لا نضل عن حقيقة هذا الموضوع بتفكيرٍ عابثٍ لا أساس له، غير أنه لا مجال للشك في وجود هذا الخير وفي كونه المنبع الأساسي لكل خير؛ وذلك لأن كل ما يوصف بالنقص إنما يعتقد فيه ذلك بغياب الكمال، فإذا وجدنا في أي صنف من الأشياء جزئيًّا يبدو غير كامل فلا بد أن هناك أيضًا عينةً كاملة في الصنف نفسه، إذ لو حذَفْتَ الكمال لاستحال عليك أن تتخيل من أين يمكن أن يأتي ما يُسمَّى عينة غير كاملة، إن الطبيعة لا تبدأ من الذي هو أدنى وأنقص، بل من الكامل والمثالي، ثم تنحدر وتَتَنَكَّس إلى هذه الحالة الهابطة المهترئة، وحيث إننا أثبتنا لِتَوِّنا أن هناك سعادةً منقوصةً في الخير الزائل، فلا شك إذن أن هناك سعادةً حقيقيةً تامة.»

قلت: «وهو استنتاجٌ سليم وصادق.»

ف: «أما مسألة أين تُلتمس فينبغي أن تفكر فيها على هذا النحو: ينعقد اتفاق البشر جميعًا على أن الله، بارئ كل شيء، هو خير، إذ لا يمكن للعقل أن يتصور ما هو خيرٌ منه، وما لا يوجد خيرٌ منه لا بد من أن يكون هو نفسه خيرًا، ويتحقق فيه الخير الأكمل، وإلا لما كان هو بارئ الخلق ولكان هناك من هو أعلى منه وأكمل خيرًا وأكثرُ قِدَمًا؛ لأن الكامل أعلى بالضرورة من المنقوص، ومن ثم، لكي نتفادى التسلسل اللانهائي لا بدَّ لنا من أن نُسلِّم بأن الله الأعلى يتصف بأسمى خيرٍ وأكمله، وحيث إننا قد اتفقنا

على أن الخير الكامل هو سعادةٌ كاملة، يترتب على ذلك أن السعادة الكاملة قائمةٌ في الألوهية.»

ب: «نعم، أوافقك على هذا القول، ولا يمكن أن يطعن فيه طاعن.»

ف: «ولكني أناشدك أن تتحقق من أنك توافق بلا قيدٍ وبلا تردد على ما قلناه من أن الله العلي يحوز أسمى خير.»

ب: «ماذا تقصدين؟»

ف: «ينبغي ألا تتصور أن الله، الذي هو مولى الأشياء جميعًا والذي نوقِن بأنه يحوز أعلى خير، أنه استمدَّ هذا الخير من خارج ذاتِه، ولا أنه يحوزه بطبيعته ولكن بطريقةٍ تجعلُك تفترض أن الله — الحائز — والسعادة التي يحوزها، هما جوهران مختلفان، فأنت إذا افترضت أنه تَلَقَّى الخير من خارج ذاته فإن لكَ أن تَعُد المعطي أعلى من الآخذ، بينما نحن قد اتفقنا، بحق، على أن الله هو أسمى الموجودات جميعًا، أما إذا افترَضْت أن الخير صفةٌ طبيعيةٌ لله ولكنها شيءٌ مُنمازٌ منطقيًّا عنه، فكلما تحدثنا عن الله كمصدرٍ للأشياء فمن ذا الذي يتصور وجود قوةٍ اضطلَعَت بضَمٍّ هذه المتمايزات؟

وأخيرًا، إذا كان شيءٌ ما منمازًا عن شيءٍ آخر فإنه لا يمكن أن يكون هو ذات الشيء الذي ينماز عنه؛ وعليه فإن أي شيء يختلف بطبيعته عن الخير الأسمى لا يمكن أن يكون هو الخير الأسمى، وما كان لنا أن نقول ذلك عن الله الذي لا يعلو عليه شيءٌ مثلما اتفقنا.

إن من الممتنع على أيِّ شيءٍ أن يكون أفضل بطبيعته من ذلك المبدأ الذي صدر عنه، بوسعي أن أخْلُص من ذلك بمنطقيةٍ تامةٍ إلى أن ذلك الذي هو مصدر الأشياء جميعًا هو بذاته وبجوهره الخير الأسمى.»

ب: «حقٌّ تمامًا.»

ف: «ولكننا اتفقنا أن الخير الأسمى هو هو السعادة؟»

ب: «نعم.»

ف: «علينا أن نُسلِّم إذن بأن الله هو السعادة المطلقة.»

ب: «إن مقدماتك صادقةٌ لا تقبل الجدل، وهذا الاستنتاج يلزم عنها بالضرورة.»

ف: «انظُر أيضًا هل يَثبتُ ذلك على نحوٍ أقوى بالبرهان التالي: من المحال أن يكون هناك خيران مختلفان كلٌّ منهما متناهٍ في الكمال، فمن البَيِّن أنه إذا انفصل خيران فإن الواحد منهما لا يمكن أن يكون الآخر، وبالتالي لا يمكن أن يكون أيٌّ منهما كاملًا من حيث هو ينقصه الآخر، ولكن من الواضح أن ما هو غير كامل فهو ليس الأسمى، إذن من المحال أن يكون هناك أكثر من خيرٍ واحد متناهٍ في الكمال، غير أننا أثبتنا أن الله والسعادة كلاهما هو الخير الأسمى، يترتب إذن أن السعادة المطلقة والألوهة المطلقة هما شيءٌ واحد.»

ب: «لا يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر صدقًا من هذا الاستنتاج أو أشد تماسكًا منطقيًّا أو أليق بالله.»

ف: «بالإضافة إلى ذلك دعني أقدم لك «لازمة» corollary (أو «بوريزما» porisma باليونانية) مثلما يفعل الرياضيون في الهندسة إذ يستخلصون شيئًا جديدًا من «المُبرهَنَة» theorem التي تم إثباتها: بما أنه من خلال امتلاك السعادة يصبح الناس سعداء، وحيث إن السعادة، في الحقيقة، هي الألوهة، فمن البيِّن أنه من خلال امتلاك الألوهية يصبحون سعداء، وبالمنطق نفسه الذي يصبح به الناس عادلين بالعدل وحكماء بالحكمة، فإن أولئك الذين يمتلكون الألوهة يصبحون إلهيين، كل امرئٍ سعيدٍ هو إذن إلهي، وبينما الله وحده هو كذلك بالطبيعة فإن بوسع أي عددٍ تشاء من الناس أن يصبحوا إلهيين بالمشاركة.»

ب: «جميلةٌ حقًّا وَجِدُّ قيمةٍ هذه «اللازمة» سواء أعطيتها الاسم اللاتيني أو اليوناني.»

ف: «ولكن الأجمل هو ما يقودنا المنطق إلى إضافته إلى كل هذا.»

ب: «ماذا؟»

ف: «هل جميع هذه الأشياء، الاكتفاء، والقوة، وما شئت، هي كالأجزاء التي تشكِّل في اجتماعها جسدًا واحدًا وإن تعدَّدَت واختلفت الواحدة عن الأخرى؟ أو أن هناك واحدةً منها يمكن أن تقدم جوهر السعادة، وتصنَّف تحتها البقية؟»

ب: «هل يمكن أن توضحي لي السؤال بأن تكوني أكثر تحديدًا؟»

ف: «حسنًا، ألم نعتبر السعادة خيرًا؟»

ب: «بلى، الخير الأسمى.»

ف: «بوسعِك أن تقول الشيء نفسه عنها جميعًا، فتحكُم بأن الاكتفاء التام هو السعادة، وكذلك القوة، والاعتبار، والمجد، والمتعة، حسن، السؤال هو: هذه الأشياء جميعًا — الاكتفاء، القوة، ... إلخ — أهي خيرٌ كما لو أن السعادة جسدٌ هي أعضاؤه، أم أن الخير شيءٌ يعلو عليها وتنتمي هي إليه؟»

ب: «أفهم الأمر الذي تقترحين أن نبحثه، ولكني مشوقٌ لسماع ما لديك بشأنه.»

ف: «أريدُك أن تأخذ التفسير التالي: إذا كانت هذه الأشياء جميعًا تتصل بالسعادة كما ترتبط الأعضاء بالجسم، ستكون مختلفةً الواحدة عن الأخرى؛ لأن طبيعة الأجزاء أن يكون الجسم واحدًا بينما الأجزاء التي تكوِّنه متعددة، ولكننا أثبتنا أن كل هذه الأشياء متماهية، إذن هي ليست كالأعضاء، أضف أن ذلك سوف يُظهِر السعادة كأنها جسدٌ مكوَّنٌ من عضوٍ واحدٍ وهو مستحيل.»

ب: «لا شك في ذلك، ولكني مشوقٌ لما سيُفضي إليه.»

ف: «من البيِّن أن الخصائص الأخرى تصنَّف تحت الخير، فالناس لا يسعون إلى الاكتفاء إلا لأنهم يرونه خيرًا، ولا يسعون إلى القوة إلا لأنهم يعتبرونها خيرًا، والشيء نفسه ينسحب على الشرف والمجد واللذة.

السبب الرئيس إذن لطلب هذه الأشياء جميعًا هو الخيرية؛ لأن ما ليس خيرًا لا يمكن لأحدٍ أن يرغب فيه، وإذا كان الناس يتوقون أحيانًا إلى ما ليس خيرًا فلاعتقادهم الخاطئ أنه خير.

ينتج من ذلك أن هناك مبرِّرًا لأن نعتقد أن الخير هو النقطة المحورية التي تتعلق بها كلُّ المساعي والدوافع، فالرغبة الحقة إنما هي في الشيء الذي يدفع الناس إلى طلب هذا الشيء أو ذاك: فالذي يريد أن يمارس الفروسية من أجل الصحة الجيدة فإنه لا يرغب في حركة ركوب الخيل بحد ذاتها بل يرغب بالأحرى في الصحة التي يُحصِّلها من ذلك، وما دام الناس يرغبون في كل الأشياء من أجل الخير الذي فيها، فلا أحد يرغب فيها بقدر ما يرغب في الخير نفسه، ولكننا اتفقنا أن الغاية من طلب الأشياء هي السعادة، إذن من الواضح البيِّن أن الخير ذاته والسعادة متماهيان.»

ب: «هذا كلامٌ لا يقبل الطعن.»

ف: «ولكننا أثبتنا أن الله والسعادة شيءٌ واحد.»

ب: «نعم.»

ف: «للمرء إذن أن يستنتج أن جوهر الله أيضًا إنما يكمن في الخير نفسه وليس في أي شيءٍ آخر.»

هلموا إليَّ يا كل أسارى الرغبة،
المُصفدين في أغلالها الفَظَّة،
تلك الشهوات الغادرة التي تُعشِّش في العقول الأرضية،
هنا سوف تجدون انعتاقًا من العَنَت المُضني
تجدون مرفأً راقدًا في حضن السكينة،
وملاذًا مُرحبًا بكل المُعذَّبين.

* * *

ولا رمال تاجوس الذهبية،
ولا شواطئ هيرموس الوضاءة،
ولا سواحل إندوس الملتهبة،
تَنثرُ الجواهر اختلطَ أخضرها بأبيضها
يمكن أن تهب النور لأي روح؛
بل تطمرها في غياباتها المعتمة
كل ما يخلب الألباب، ويخطف الأبصار
إنما تنضجه الأرض في كهفوها السفلى،
بينما النور البهي الذي تسير به السماء وتحيا،
ينأى عن هذه الأرواح المظلمة الخربة،
هذا هو الضياءُ الحق، مَن يَبصُر به
سيقول ما للشمس خبا ضياؤها.

الفصل الحادي عشر

كل شيء يبتغي الخير

ب: «لا يَسَعني إلا أن أوافقَك، فكلُّ الذي قلته يقف متماسكًا يترابط بعضُه ببعضٍ بأوثق البراهين.»

ف: «كم تكون قيمته عندكَ إذا قادك إلى معرفة الخير ذاته؟»

ب: «سأعُدُّه ذا قيمةٍ مطلقة إذا مكَّنني أيضًا أن أرى الله، الذي هو الخير.»

ف: «سأجعل قولي واضحًا ببرهانٍ لا يناله الشك، شريطة أن تلتزم بما خلصنا إليه منذ قليل.»

ب: «سألتزم.»

ف: «لقد أثبتنا أن مختلف الأشياء التي يسعى إليها معظم الناس ليست كاملةً وليست خيرًا؛ لأنها مختلفةٌ بعضها عن بعض ويفتقر بعضها إلى بعض ولا يمكنها أن تُسبغَ على المرء خيرًا تامًّا مكتملًا، وقلنا، من جهةٍ أخرى، إن الخير الحقيقي يتأتَّى حقًّا إذا انضمت معًا في شكلٍ واحدٍ وقوةٍ فاعلة بحيث يتماهى الاكتفاءُ مع القوة والشرف والمجد واللذة، وما لم تكن جميعًا شيئًا واحدًا، وتكن كلُّها الشيء نفسه، فلن تستحقَ أن تُدرج بين الأشياء الجديرة بالسعي.»

ب: «لقد أثبت ذلك بما لا يَدَع مجالًا للشك.»

ف: «عندما تختلف هذه الأشياء وتتباين لا تكون خيرًا، ولكن عندما تشرع في أن تكون واحدًا تصبح خيرًا، يتبين من ذلك أنه إنما من خلال اكتسابها الوحدة تكون هذه الأشياء خيرًا، أليس كذلك؟»

ب: «بلى، يبدو ذلك.»

ف: «ولكن أتوافق أم لا على أن كل شيءٍ خيِّرٍ يُعَد خيرًا من خلال مشاركته في الخيرية؟»

ب: «أوافق تمامًا.»

ف: «إذن أنت مضطرٌّ إلى أن توافق بنفس القياس على أن الوحدة والخيرية متماهيتان؛ لأن الأشياء التي يتماهى تأثيرها الطبيعي لا بد من أن يكون لها الجوهر نفسه.»

ب: «لا يسعني أن أنكر ذلك.»

ف: «أنت تعرف إذن أن كل شيء في الوجود يبقى ويدوم ما دام واحدًا، فإذا لم يَعُد واحدًا فإنه لا يلبث أن يهلك ويتبدَّد.»

ب: «كيف ذاك؟»

ف: «تمامًا مثلما هو الحال في الكائنات الحية: إذا التقى الروح والجسم وبقيا متحدين نكون بإزاء كائنٍ حي، أما إذا تَفَسَّخت هذه الوحدة بانفصال أيِّ مُكوِّنٍ، فمن الواضح أن الكائن يهلك ولا يعود موجودًا، ينطبق الأمر أيضًا على الجسد نفسه: فما دام محتفظًا بهيئةٍ واحدةٍ من خلال اتحاد أعضائه فأنت ترى صورةً بشرية، أما إذا تفرقت الأجزاء وانفصلت وانحَطَمَت وحدة الجسم فإنه لا يعود ما كان، وبوسعك أن تستعرض كلَّ شيء وسيكون واضحًا لك من دون أي ظلٍّ من الشك أن كل شيءٍ يبقى ما دام واحدًا ويزول بزوال وحدته.»

ب: «نعم، بوسعي أن أُعدِّد كثيرًا من الأشياء التي ينطبق عليها ذلك.»

ف: «والآن، هل هناك شيءٌ يفقد خلال مسعاه الطبيعي إرادة البقاء ويرغب في الموت والفساد؟»

ب: «في حدود المخلوقات الحية التي تتمتع في طبيعتها بالإرادة لا أعرف في أيٍّ منها أي رغبةٍ في التخلي عن عزمها على البقاء كما هي، أو في التعجيل بالموت، ما لم ترغمها على ذلك قوى خارجيةٌ قاهرة، فما من حيٍّ إلا يجهد للبقاء ويتجنبُ الموتَ والهلاك، أما بالنسبة للشجر والنبات فيخالجني الشك فيما ينبغي أن أُقرَّه بشأنها.»

ف: «وحتى في هذه الحالة ليس هناك مجالٌ للتردد، فأنت ترى كيف ينمو الشجر والنبات في الأماكن الملائمة له، وكيف يَذوِي سريعًا ويموت إذا لم يلائمه المكان، منه ما ينمو في الحقول، وما ينمو في الجبال، والبعض تغذوه المستنقعات، والبعض يتعلق بالصخور والبعض يترعرع في الصحاري المقفرة فإذا ما غَرَسته في مكانٍ آخر صُوِّح وذبُل، إن الطبيعة لَتَرأم كلًّا بما يلائمه وتَكُد لتدرأ عنه الموت ما دامت شروط الحياة مواتية.

تأمل كيف تُدبِّر النباتات غذاءها بجذورها، لكأنها تضرب في الأرض أفواهها، وكيف تدبُّ العافية في لبِّها ولحائها، وانظر كيف يتوارى جانبُها الأَرَق، كالعصير، دائمًا إلى الداخل، بينما تتدرَّع بلحاءٍ خارجي له بأس الخشب يَقِيها غوائل الطقس، وانظر مَدَى حرص الطبيعة على أن تَضمَن لكل النباتات استمرارها بإكثار بذورِها، إنها، كما هو معلومٌ جيدًا، أشبه بآلاتٍ منتظمة، ليس لمدة حياتها فحسب، بل لامتداد نوعها وذَراريها إلى الأبد.

حتى الأشياء التي يفترض أنها غير حيةٍ تحافظ جميعًا على نفسها على نحو مماثل، لماذا يعلو اللهب إلى أعلى بخفَّته وتهبط الأجسام الصلبة إلى أسفل بثقلها، إن لم يكن ذلك لملاءمة هذه الأوضاع والحركات لكلٍّ منها؟ وفضلًا عن ذلك، فإنها تحفظ ما هو ملائم لكلِّ شيءٍ مثلما تُدَمِّر ما هو مؤذٍ له، فالأشياء الصلبة، كالحجر، تندمج بتماسكٍ شديدٍ بين أجزائها وتقاوم الانكسار، أما السوائل والهواء والماء، فتستسلم للانقسام وتعود فتلتئم بسهولةٍ مع أجزائها المنفصلة، أما النار فلا يمكن أن تُقطع على الإطلاق.

لَسنا بصَدَد الحركات الإرادية للعقل الواعي، بل الحركات الغريزية للطبيعة، فنحن، على سبيل المثال، نهضم الطعام الذي تناولناه دون أن نعي ذلك، ونتنفس لا شعوريًّا أثناء نومنا، فحُبُّ البقاء حتى في الأشياء الحية ليس مَرَدُّه إلى رغبة العقل بل إلى

مبادئ الطبيعة، فكثيرًا ما يَقبَل العقل، تحت تأثير الضغوط الخارجية، فكرة الموت، بينما ترفضُها الطبيعة في وَجَل، ومن جهةٍ أخرى، قد تكبح الإرادة عملية الإنجاب، وهي الطريقة الوحيدة لاستمرار المخلوقات الفانية، بينما ترغب فيها الطبيعة على الدوام، إلى هذا الحد يَنجُم حُبُّ البقاء لا من الرغبة الواعية بل من الغريزة الطبيعية، هكذا مَنَحَت العناية مخلوقاتها سببًا عظيمًا لاستمرار الحياة، وهو الرغبة الغريزية للبقاء على قيد الحياة جهد المستطاع، ومن ثم فليس لك أي مبررٍ للشك في أن جميع الأشياء الكائنة لديها رغبةٌ فطريةٌ في استمرار وجودها وتجنُّب فنائها.»

ب: «أعترف أنني أرى الآن دون أدنى شك ما بدا لي غير يقيني منذ قليل.»

ف: «ولكن، أيما كائنٍ يريد بقاءهُ ودوامَ وجوده فإنه يَوَدُّ أن يكون واحدًا ... يريد الوحدة، انتزع الوحدة من الشيء ولن يعود هذا الشيء موجودًا.»

ب: «هذا حق.»

ف: «إذن كل الأشياء ترغب الوحدة؟»

ب: «نعم.»

ف: «ولكننا أثبتنا أن الوحدة تتماهى مع الخير؟»

ب: «نعم.»

ف: «إذن جميع الأشياء ترغب في الخير، بحيث يسعُكَ القول بأن الخيرية هي ما ترغب فيه جميع الأشياء.»

ب: «ليس أصدق من ذلك استنتاجًا، فإما أن تضطرب جميع الأشياء دون وجهة واحدة وتتخبط بلا هدف ولا مرشد، وإما أن هناك شيئًا تتجه إليه جميع الأشياء، وإذا كان ثمة من شيءٍ تكدح إليه الأشياء فسيكون هو أسمى الخير كله.»

ف: «كم أنا سعيدةٌ يا بُني لأنك قَبَضت على جُمع الحقيقة، وبذلك يكون قد انكشف لك ما كنت تقول منذ قليل إنك لا تعرفه.»

ب: «ماذا؟»

ف: «انكشفَ لك ما هو هدف الأشياء جميعًا، فمن المؤكد أنه هو نفسه ما ترغب فيه جميع الأشياء، وبما أننا اتفقنا على أن ما يرغب فيه الجميع هو الخير، فلا مناصَ من أن نتفق على أن الخير هو غاية الأشياء جميعًا.»

من أرادَ أن يبحثَ عن الحقيقة بكُنه الهمَّة،
وألا تُضلَّه السُّبل
فعليه أن يتجه إلى داخله ويوقد نوره الباطن،
وأن يطوي تُرَّهات عقله الطويلة إلى دائرةٍ واحدة،
وأن يعلِّم قلبه أن ما يبغيه في الخارج بالكدِّ والعَنَت،
هو يملكُه بالداخل مَذخورًا في أعماق الروح
هنالك تنقشع غيوم الضلال الكئيبة،
عن الحقيقة المحجوبة، فتتجلَّى أوضحَ من الشمس ذاتها،
فكثافة الجسد التي تُولِّد النسيان
لم تحجب عن العقل الضياء كلَّه،
فبذرة الحقيقة ما تزال تَعلَق هناك،
ويمكن أن تُروِّحها الفلسفة[1] وتُوقظ جَذوتَهَا
وإلا فكيف يَسَعُك أن تجيب كلما سُئلت،
وتقول صوابًا
لو لم تكن فيك جذوة
تَئِز بأعماق روحك،[2]

[1] أو التعليم.

[2] في محاورة «فيدون» يقول سيبيس: إحدى الحجج الممتازة (على أن التعلم ما هو إلا تذكر لما عرفته النفس في حياةٍ سابقةٍ ثم نسيته) هو أنه حين يسأل الناس، وكان السؤال موضوعًا على النحو الصحيح، فإن بوسعهم أن يقدموا جوابًا صحيحًا تمامًا، ما كان لهم أن يقدموه لو لم تكن لديهم معرفة ما وفهمٌ صحيح للموضوع (اكتسبوه قبل ولادتهم).

ولو صَدَقت ربة الفن عند[٣] أفلاطون،
فإن المرءَ لم ينس
إنما هو يُذكِّر نفسه بما يعلَمه.[٤]

[٣] أي مصدر وحيه وإلهامه، ربات الفنون المواسي Mousai هي إلهاتٌ تسعٌ تتولى أمر التعلم والفنون، وبخاصة الشعر، وقد دَأَب الكُتَّاب اليونان والرومان على أن يستهلوا قصائدهم بالتماس عون ربات الفن لهم على التأليف والإبداع.

[٤] في محاورة «مينون» و«فيدون» يُبيِّن أفلاطون أن التعلم ليس عملية تلقينٍ بسيطة من معلِّم إلى تلميذ، بل عملية توليد معرفة من الداخل كانت الروح قد حازتها قبل ميلاد المرء ولكنها نسيتها، أو، بعبارة أخرى، أن التعلم ما هو إلا تذكُّر لما كانت النفس قد عرفته من قبل اتصالها بالجسد، وفي محاورة «مينون» يُقدم سقراط برهانًا على ذلك بحديثه مع صبي صغير من عبيد مينون، ومن خلال أسئلة بسيطة متدرجة يصل الصبي بنفسه إلى حل المسألة الهندسية المطروحة، وبذلك يثبت لمينون أن إجابات الصبي عن المسألة الهندسية إنما تأتي من داخله:

سقراط: ما رأيك يا مينون؟ هل أجاب بفكرة واحدة لم تخرج منه هو نفسه؟
مينون: كلا.
سقراط: إذن هذه الأفكار كانت موجودةً فيه.
مينون: نعم.
سقراط: إذن، بغير أن يتعلم من أحد شيئًا، بل بمجرد إلقاء الأسئلة عليه، هو يصل إلى معلومات، مستخرجًا العلم بذاته من ذاته.
مينون: نعم.
سقراط: ولكن استخراج المرء العلم من ذاته، أليس هو التذكر؟
مينون: بلى.
سقراط: فإذا لم يكن قد حصل على هذه الأفكار في هذه الحياة، ألا يصبح واضحًا أنه حازها في وقتٍ آخر وتعلمها؟

(انظر محاورة مينون، د. عزت قرني، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١م، ص١٠٣–١٢٣.)

الفصل الثاني عشر

الله يُدبر العالم بالخير

عندئذٍ قلت: أتَّفق مع أفلاطون كل الاتفاق، فهذه هي المرة الثانية التي ذكَّرتني فيها بهذه الأمور: فقد نَسيتُها أول مرةٍ بتأثير الجسد، ونسيتُها مرةً ثانيةً حين أخنى عليَّ الحزن.

ف: «إذا رجعتَ إلى ما اتفقنا عليه سابقًا، فسوف تتذكَّر بسهولةٍ ما قلت الآن إنك نسيتَه.»

ب: «وما هو؟»

ف: «الطريقة التي يُدبَّر بها العالم.»

ب: «نعم، أذكر أني قد اعترفت بجهلي، ورغم أن لَدَيَّ حدسًا بما سوف تقولين فإنني مشوقٌ إلى أن أسمعه منك بوضوحٍ أكثر.»

ف: «منذ قليل قلت إنك لا يُخامرُك أدنى شك في أن هذا العالم يُدبِّره الله.»

ب: «وما أزال أقول بذلك وسأظل دائمًا أقول به دون أدنى شك، وسأوجز لك حُجتي في هذا الشأن:[1] ما كان لهذا العالم أن يتشكل في صورةٍ واحدةٍ من أجزاءٍ متفرقةٍ متضادة لو لم يكن هناك من يُوحِّد مثل هذا التنوع ويضُمُّ معًا مثل هذه الأجزاء المختلفة، وهي إذ تتحد فإن اختلاف طبائعها نفسه وتنافرَها فيما بينها كفيلٌ بإفساد تآلفها وتمزيقها إربًا إربًا لو تُرِكت لشأنها ولم يُمسك بها من جَمَعَها ويحافظ على تماسك ما نَسَجَ من قبل. إن نظام الطبيعة الثابت لا يمكن أن يمضي في طريقه ويؤتي ضروبًا من الحركة المنتظمة، في المكان والزمان والتأثير والمسافة والخصائص ما لم تكن

[1] في هذه الفقرة يقدم بوئثيوس برهانه على وجود الله في أتم عرضٍ وأحكمه.

هناك قوةٌ ثابتة لا تتحرك لكي تنظمها، للإشارة إلى هذه القوة، أيًّا ما تكون، التي تُبقي الخلق في وجودٍ وفي حركة، أستخدم الكلمة التي يستخدمها الناس جميعًا: الله.»

ف: «ما دمت ترى هذا فلم يبقَ لي ما أفعله قبل أن تعود إلى وطنك الحقيقي سالمًا آمنًا والسعادةُ ملك يديك.

ولكن دعنا ننظر في الحُجج التي طرحناها، تحت السعادة أدْرَجنا الاكتفاء، أليس كذلك؟ وقد اتفقنا على أن الله هو السعادة نفسها؟»

ب: «نعم.»

ف: «لذا فإنه في تدبيره للكون لا يحتاج إلى مساعدةٍ من الخارج وإلا ما كان مكتفيًا بذاته.»

ب: «هذا مترتِّبٌ بالضرورة.»

ف: «إذن هو يدبر كل الأشياء بنفسه؟»

ب: «نعم بلا شك.»

ف: «وقد أثبتنا أن الله هو الخيرُ ذاتُه.»

ب: «نعم، أذكر ذلك.»

ف: «إذن هو يدبر كل الأشياء بالخير ما دام يدبرها بنفسه وقد عرفنا أنه هو الخير، وهذه إذن هي «الدَّفَّة والسُّكَّان»، إن صحَّ التعبير، التي تُدار بها آلة العالم سالمةً آمنة.»

ب: «أوافق بشدة، وهذا بالضبط ما كنت أتوقع أنكِ ستقولينه بالرغم من أنني لم أكن موقنًا من حدسي.»

ف: «أُصدِّقُك، فأنت الآن فيما أرى تحتشدُ وتَحُد البصر لرؤية الحقيقة، على أن ما سأقوله ليس يخفَى على البصر.»

ب: «وما هو؟»

ف: «أما وقد تَحَقَّقنا من أن الله يُسيِّر الأشياء جميعًا بمِقوَد الخيرية، وأن الأشياء جميعًا، كما قلت، لديها نزوعٌ طبيعي نحو الخير، فلا مَحَل للشك بأنها تسعى بملء إرادتها وتمتثلُ طواعيةً لإرادة ربانها ومدبِّرها الأعلى.»

ب: «هو ذاك يقينًا؛ إذ لن تبدو قيادةً سعيدةً إذا كانت نيرًا مفروضًا على رقابٍ مكرهةٍ لا تسليمًا راضيًا مرضيًّا.»

ف: «لا يمكن لأي شيءٍ، إذن، أن يَعصِي الله ويكون مخلصًا لِفطرتِه.»

ب: «لا يمكن.»

ف: «وإذا أراد العصيان فلن يربح في النهاية؛ حيث إنه يعصي من تبيَّنا أنه أعلى سلطةٍ فيما يتصل بالسعادة.»

ب: «لن يربح بكل تأكيد.»

ف: «أيكونُ ثمة من شيءٍ، إذن، يمكن أن تكون لديه الإرادة أو القدرة على مناوأة الخير الأسمى؟»

ب: «لا أعتقد.»

ف: «إنه الخيرُ الأسمى، إذن، ذاك الذي يدبر كل شيءٍ بقدرةٍ ورأفة.»

ب: «ما أسعدني بحديثك، بما برهنتِ عليه بأقوى الحجج، وعلى الأخص بأسلوبك في البرهان،[٢] إنه ليجعلني أخجل الآن من كل شكاياتي المُتبجِّحة الحمقاء.»

ف: «لا شك أنك سمعت في الميثولوجيا كيف شرع المَرَدَة يهاجمون السماء، لقد كانت هذه القوة الرحيمة ذاتها هي ما رَدَعَهم كما ينبغي وردَّهم عن غَيِّهم، ولكن، هل تَوَد أن أطرح مفارقةً، أو تضاربًا في الحجج، لعل اصطدامًا من هذا النوع أن يولد شررًا جميلًا من الحقيقة؟»[٣]

ب: «كما شئت.»

ف: «لا يشك أحد في أن الله شامل القدرة omnipotent.»

ب: «لا يشك عاقلٌ في ذلك على الإطلاق.»

ف: «ومن حيث هو كلي القدرة فهل ثمة شيءٌ لا يستطيع فعله؟»

ب: «لا شيء.»

---

[٢] أي بالألفاظ ذاتها التي اتخذتها في البرهان، ويذهب كثيرٌ من الشراح إلى أن في هذه العبارة صدًى مسيحيًّا واضحًا، من حيث إنها تُذكِّر «بوئثيوس» بأقوال الكتاب المقدس وآباء الكنيسة.

[٣] تكرار لما سبق أن قلناه في حاشية سابقة عن معنى المفارقة وأهمية دراسة المفارقات (… تضطَّرنا إلى مراجعة مفاهيمنا، ويتطلب حلُّ كل مفارقة جهدًا لا نفرغ منه إلا وقد تَكَشَّف لنا شيءٌ في تفكيرنا الاستدلالي لا نفهمه).

ف: «فهل يستطيعُ الله أن يفعلَ الشر؟»

ب: «لا.»

ف: «إذن الشرُّ لا شيء؛ لأنه ذلك الذي لا يقدر على فعله مَن يقدر على كلِّ شيء.»[٤]

ب: «إنك تُداورينني، أليس كذلك؟ بنسج متاهةٍ من الحُجج لا أعرف كيف أخرج منها، فمرةً تدخلين من حيث تخرجين من بعدُ، ومرةً تخرجين من حيث تدخلين، أم تراك تعقِّدين حلقةً عجيبةً من بساطة الألوهية؟ فمنذ قليل بدأت بالسعادة وقلت إنها في الله، ثم بدأت تُحاجِّين بأن الله نفسه هو أيضًا الخير الأسمى والسعادة الكاملة، ثم دفعت لنا بنفحةٍ ما حين قلت بأن المرء لا يكون سعيدًا ما لم يكن أيضًا إلهيًّا. لقد قلت إنَّ كُنْه الخير نفسه يتماهى مع جوهر الله وجوهر السعادة، ولقَّنتني أن الوحدة نفسها هي الخير نفسه لأن الأشياء جميعًا تنزع بطبيعتها إلى الوحدة، ثم قلت بأن الله يدبر ويُسيِّر الكون بمقود الخيرية، وأن جميع الأشياء تمتثل طائعةً، وأن الشر لا شيء، كل أولئك تبسطينه من دون أي عونٍ خارجي، بل يلتحم كل برهانٍ بالآخر ويستمد مصداقيته من سابقه.»

عندئذٍ أجابت: «ما كنت هازئةً بك. بفضلٍ من الله الذي دعوناه، منذ لحظةٍ وصلنا إلى أسمى الأشياء جميعًا؛ إن صورة الجوهر الإلهي تقتضي ألا يذوب في خارجه ولا يستمد شيئًا مما سواه، وكما يقول بارمنيدس Parmenides «مثل كرةٍ مُحكمة الاستدارة».

يدير كرة الكون ويبقى هو ثابتًا، فإذا كنتُ أتناول حججًا لا تُستمد من الخارج بل من داخل حدود المسألة المطروحة فلا عجب في ذلك. لقد تعلَّمت على عُهدة أفلاطون أن علينا أن نستعمل لغةً مثيلةً بموضوع الخطاب.»[٥]

سعيدٌ هو الإنسان الذي أمكنه
أن يشاهد النبع البللوري للخير،
أن يتخلَّص من أغلال المادة والأرض ويتركها وراءه.
قديمًا عندما شرع أورفيوس يندب زوجته التي غيَّبها الموت
انسابت أنغامه الشجية فتحركت لها الأشجار لتتبعه،
وتوقَّف مجرى الأنهار عنده،

---

[٤] انظر تعليقنا على هذه الحجة ومثيلاتها في الدراسة الملحقة بالنص، تحت عنوان «مآخذ وانتقادات».

[٥] انظر تعليقنا على هذه القاعدة الأساسية في الدراسة الملحقة، تحت عنوان «مسيحية بوئثيوس».

وجعلت الأيائل تُرافق الأسود الضواري دون وَجَل،
والأرنب ينظر مطمئنًّا إلى كلب الصيد
المُخدَّر الآن بصوت الموسيقى،
ولكنه وقد أذابت قلبه لوعة الفراق،
والتَعَجَت في أحشائه نيران الأسى،
فإن نشيده الذي أخضع لسلطانه كلَّ شيء
لم يَشفِ غُلَّة مُنشده نفسه!
فشكا قسوةَ الآلهة في الأعالي،
ودنا إلى العالم السفلي للموتى،
هناك جعل يضرب على أنغامٍ ناعمةٍ مهدِّئة،
ويُرتل أناشيد استقاها قديمًا من نبع أمه[٦] الأصيل،
لقد منحه حزنه الجارف قوةً،
وضاعف حُبُّه من قوةِ حزنه؛
فحرك بكاؤه أعماق الجحيم
وتضرَّع إلى سَدَنة العالم السفلي أن ترحمه.
وقف كيربيروس[٧] الحاجب ذو الرءوس الثلاثة
مشدوهًا مأسورًا بسحر النغم،
أما آلهة الانتقام
التي تُلقي الرعب في قلوب المذنبين،
فقد فاضت أعينها من الدمع،
وتوقَّفت عجلة إكسيون،[٨]
ونَسِي تانتالوس[٩] عطشه وازدرَى الماء الجاري،

[٦] ربة الفن «موسا» كاليوبي Calliope راعية الشعر الملحمي.

[٧] كيربيروس كلب ذو رءوس ثلاثة، هو حارس بوابة العالم السفلي.

[٨] عُوقب إكسيون على جرائمه بربطه بعجلة دوَّارة للأبد.

[٩] عُوقِب تانتالوس على جرائمه بأن يكون في جوعٍ وعطشٍ دائمَين رغم أنه محاطٌ بالثمار والماء الجاري، وكلها تفلت دائمًا من بين أصابع يده.

وانشغَلَ النسرُ بالأنغام،
فكَفَّ برهةً عن نهش قلب تيتيوس،[١٠]
وأخيرًا صاح بلوتو ملك العالم السفلي بصوتٍ متهدِّج:
«لقد استسلمنا ... خُذ معك زوجتك فقد فديتَها بأغنيتك،
ولكنَّ نعمتنا مشروطةٌ بشرطٍ واحد:
ألَّا تنظر وراءك إليها
حتى تُغادر هذه الدور المظلمة.»
ولكن ... مَن ذا الذي يمكن أن يُقيِّد الحب بقانون؟!
الحب قانونُ نفسه.
وا أسفاه، فما كاد يبلغ أورفيوس تخوم عالم الظلام
حتى التفت وراءه ونظر إلى يوريدبكي،
فخسرها وخسر نفسه.

* * *

عنك أيضًا تتحدث هذه الأسطورة،
أنت يا مَن تبتغي أن تحدو أفكارك إلى النور العلوي
فكل من يستسلم للرغبة
ويحوِّل بصره عن السماء إلى الظلام الأرضي،
فإنه في هذه اللحظة
يخسر الجائزة التي حازها،
ويفقدُ كلَّ ما عساه أن يصعد معه.[١١]

---

[١٠] عُوقب تيتيوس العملاق على جرائمه بأن قُيِّد إلى الأرض وتظل النسور تلتهم أحشاءه.

[١١] تتحدث الأسطورة عن هبوط المُغني الطراقي أورفيوس إلى العالم السفلي في محاولةٍ لاسترداد زوجته يوريديكي التي ثَكلها، حيث فَتن بغنائه حارس البوابة كيربيروس، الكلب ذا الرءوس الثلاثة، وتأثرت بنغمه آلهة الانتقام فكفَّت عن تعذيب إكسيون وتانتالوس وتيتيوس، ولما انتهك أورفيوس شرط بلوتو، إله العالم السفلي، بأن نظر خلفه إلى يوريديكي، فقد فقدها في آخر لحظة.

والقصيدة تُهيب بالمتلقِّي «بوئثيوس» أيضًا أن يبقى حذرًا حتى النهاية، وألا يفقد صلته بالخير الشامل وإلا فإنه يخسر حتى ما حصله من خيراتٍ جزئية.